إشكالية المصطلح 'المكان، الفضاء، الحيز'

ط.د/ دودية عبد القادر
جامعة جيلالي اليابس –سيدي بلعباس–

اهتمت الدراسات الحديثة والمعاصرة بالخطاب اللغوي، كما أنها أكدت وبخاصة النظريات حضورها في الباث والمستقبل الذي يصنع الإبداع، فيتصرف في توجيه مسلكه وطريقه اللغوي بما يتلاءم وطبيعة المتلقي، هذا الأمر، وهذه الحماسة دفعت غيرنا إلى الخطو بخطى التقعيد لوضع مصطلحات وآليات لضبط هذا الثراء.

عاشت الرواية تحت سقف المصطلحات، وباب التأويلات، فأنتجت آليات لضبط مسار الحكي داخلها، فكان السارد أو الراوي أو أنا على اختلاف المدلول جزءا منها أو محايدا عنها، مما سبب الوفرة المعجمية الاصطلاحية التي ولدت من رحم الترجمة، فالسرد قديم المصطلح والترجمة وليدة الحاضر، والنص حبيس هذه المصطلحات، واختلاف الرؤى والتوجه صار حملا ثقيلا على القارئ لضبطه، فحدث ما يسمى بالإغماء الاصطلاحي، لكثرة الاختلافات.

ومن المصطلحات التي تضاربت فيه الأقوال وتضارعت، قبل أن تتخذ شكلا مغايرا للدلالة التي يحملها مصطلح «المكان» الذي يعد عنصرا أساسيا وفعالا في العمل السردي الروائي منه والقصصي، بل يراه الكثير أنه الهيكل الذي تقوم عليه باقي العناصر السردية الذي يحملها ويشكل وجودها رئيسية كانت أم ثانوية، فيقدم الكاتب للمتلقي أحداثا زمنية وشخوصا مشكلة للعمل وغيرها من العناصر التي يبنيها الهيكل ويُحْدث وجودها.

إن تقديم المكان في العمل الروائي والقصصي على نمطين: إما أن يكون حقيقيا واقعيا منبعه التجربة المعاشة فيستقي منها الأحداث والشخصيات و...، وإما أن يكون من نسج الخيال فيتحرر من ربقة الحتمية واللزوم الذي تفرضه التجربة الواقعية، ومعطيات الحياة فينسج خيالا واسعا في مكان اللاشعور محدثا سفرا عبر الزمن التخيلي.

يقول ميشيل بورتو :"إن قراءة الرواية رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ؛ فمن اللحظة الأولى التي يفتح فيها القارئ الكتاب ينتقل إلى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ"[1].

أ-تحديد المصطلح:

اختلفت الدراسات الغربية في تحديد المصطلح بين Lieu, Place/ المكان والموقع وEspace /الفراغ.

أ-1. المكان:

لغة: وردت كلمة المكان في المعجم العربي المكان والمكانة واحد...في أصل تقدير الفعل مفعَل ؛ لأنه موضع لكينونة الشيء فيه[2]...، وقد جمع حسن مجيد العبيدي عدة مرادفات تستعمل في اللغة للدلالة على المكان، منها: المحل والأين، والملأ والحيز فقال:" **فالمحل يطلق على البعد، وأما الأين فعندهم هو سؤال عن مكان وهي مُغنية عن الكلام الكثير والتطويل، وذلك أنك إذا قلت أين بيتك؟ أغناك ذاك عن ذكر الأماكن كلها .وهو اسم لأنك تقول:من أين...الليث، الأين وقت من الأمكنة: أين فلان فيكون منتصبا في الحالات كلها ما لم تدخله الألف واللام**"[3].

ويقول عن الملأ: "**هو لغة ضد الخلاء، ويطلق على المتسع من الأرض، والحيز أحد الألفاظ التي تورد بكثرة مرادفا للمكان، فإنه لغة، يعني الفراغ مطلقا سواء مساويا لما يشغله أو زائدا عليه أو ناقصا عنه، يقال: زيد في حيز وسيع بسعة جمع كثيرا، وحيز ضيق لا يسعه هو بل بعض أعضائه خارج الحيز كذا قيل، وفي أكثر كتب اللغة أنه المكان**"[4].

أما الموضع أو الوضع في نظره؛ "**فإنه يرد عند اللغويين على أنه اسم الظرف مكانا، وإذا أردنا أن نتناول الخلاء مرادفا من المرادفات التي تطلق على الضد من المكان المملوء، فهو نقيض الملاء...وهو المكان والشيء يخلوا خلوا أو الخلاء،**

وأخلى إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه وهو خال"[5].

اصطلاحا:

اقتحمت دلالة المكان الكثير من المجالات، الهندسة والفيزياء وأولها الفلسفة...بين أدباء مثقفين وعلماء باحثين، **فعلماء الفيزياء** يرونه عبارة عن حركة فيزيائية فهو مُنْفَسَح ثلاثي الأبعاد لا حدود له تأخذ فيه الأجسام والوقائع وضعا واتجاها نسبيا[6].

فالمكان هو "**مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل الاتصال والمسافة"**[7].

إن لغة المكان وسيلة عملية لوصف الواقع وحياة جغرافية لرسم الحياة، وسجلا تاريخيا لرواية الزمن على خشبة الحاضر، وبعدا هندسيا لحركة فيزيائية تعبر عن نفسية موجودة تحدث في الكيان بإحساس المواطنة أو في اللاشعور بالانتماء إليه، يقول هنري متران "**المكان هو الذي يؤسس الحكي؛ لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة"**[8]، فالعمل الأدبي على حد تعبير هلسا "**حين يفتقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"**[9].

فما هو المكان في الصورة الفنية؟ يجيب باشلار هو:" **ذلك البيت الذي ولدنا فيه؛ أي بيت الطفولة، أنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا"**[10]، فالمكان:" **ينفتح على مجال تخييلي مقيد تتأنسن فيه الكثير من صفاته وخصائصه وأجوائه، وتأخذ بعدا بشريا إنسانيا بمعية الشخصية /الشخصيات التي تتحرى . عبره ومن خلاله وبواسطته . الكشف عن تشكيل سيرتها على نحو أو آخر"**[11].

أ-2.الفضاء:

لغة: فضى: الفاء والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على انفساح شيء واتّساع[12]، والفعل فضا يفضو فضوا فهو فاض، وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسع، وأفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأصله أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه[13].

اصطلاحا: يرى لوري لوتمان أن الفضاء عبارة "**عن مجموعة من الأشياء المتجانسة (ظواهر وحالات ووظائف وصور، ودلالات متغيرة) تقوم بينها علاقات شبيهة بتلك العلاقات المكانية المعتادة (كالامتداد والمسافة)...**"[14]، فهو لا يتعلق بالمكان لوحده بل يتعدى إلى غيره فهو أقرب ما بكون عبارة عن"**علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد، كالشخصيات والأحداث والرؤى السردية**"[15].

إن لفظ الفضاء لفظ شامل وأعم يستدعي استمرارية الزمن لتصور الحركة فيه، فهو "**عبارة عن مجموعة الأمكنة الموجودة في النص السردي**"[16] .

أ–3. الحيز: وهو أيضا من المرادفات المتعلقة بمصطلح المكان.

لغة: هو الجمع وضم الشيء، وكل من ضم إلى نفسه شيئا من مال أو غير ذلك فقد حازه حوزا[17]، والحوز من الأرض أن يتخذها رجل ويبين حدودها فيستحقها فلا يكون لأحد فيها حق معه[18].

اصطلاحا: يرى غريماس أن الحيز هو "**الشيء المبني (المحتوى على عناصر متقطعة) انطلاقا من الامتداد، التصور، هو، على أنه بعد كامل، ممتلئ، دون أن يكون حل لاستمراريته، ويمكن أن يدرس هذا الشيء المبني من وجهة نظر هندسية خالصة**"[19]، وقد اختار هذا المصطلح الدكتور عبد الملك مرتاض وارتآه في كتاباته كما أشار إليه 'في نظرية الرواية'، وقد أشار إلى مصطلحين طاغيين في الرواية وهما مصطلح الفضاء والحيز لأقربهما إلى ترجمة space/Espace ، وذهب إلى اختيار هذا المصطلح . الحيز . عن غيره كون " **أن مصطلح الفضاء من منظورنا على الأقل قاصر بالقياس إلى الحيز؛ لأن الفضاء من**

الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخَواء والفراغ، بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النُتوء والوزن والثَّقَل والحجْم والشكل ...على حين أن المكان نريد أن نَقِفَه في العمل الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي وحدَه"[20]، إذ يرى الجرجاني **"أن الحيز هو الفراغ المتوهم يشغله شيء ممتد كالجسم..."**[21] ، فلا يمكن تعبير الفضاء أو المكان بالحيز؛ فالحيز مصطلح يشير للصلة بين الأجسام داخل المكان، وهو عكس المكان من حيث هو تماس بين الحاوي والمحوي أو دخول الظرف في المظروف ، فالحيز قد تطلق على الأجسام نفسها بصفتها بعداً يشغل مكاناً ما ولها مساحة محددة، كما لا يمكن أن يكون " **الجسم الذي يشغله الشكل فقط، بل يمكن أن يكون أيضاً بعداً بين الأشكال"**[22].

كما أن هناك مصطلحات لها دلالات يحملها مصطلح المكان كالامتداد والبيئة والخلاء والفسحة، لكنها لم تعن عناية في دلالة المعنى المنتظر في الرواية أو الشعرية المنتظرة من الإيحاءات التي يصنعها المصطلح ليشير إلى معاني أعمق ودلالات مخبوءة تنتظر من المتلقي الكشف عنها وإظهارها والسباحة في عالم المثل.

بقيت المصطلحات الثلاث المكان والفضاء والحيز محل بحث أيهم أقرب للترجمة وأبعد دلالة، فالمكان موقع يعيشه الأديب يبقى راسخا في الذهن يستحضره متى شاء وفي أية لحظة يستذكر به الموقف، فهناك من النقاد من تشبث بهذا المصطلح وهناك من رأى غيره لجحوده واحتكاره، فذهب إلى اعتبار أن الفضاء هو الأبلغ في التنظير، كونه العنصر الأساسي في تشكيل أي عمل روائي، وهو مكان وقوع الرواية وحركة شخصياتها وأفعالها، وأهوائها، ونوازعها وعواطفها وآمالها وآلامها مع سيرورة الزمن فيها، ذلك أن "مجموع هذه الأمكنة هو ما يبدوا عليه منطقيا أن نطلق عليه اسم فضاء الرواية؛ لأن الفضاء أشمل ، وأوسع من معنى المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء، وما دامت الأمكنة في الرواية غالبا ما تكون متعددة، ومتفاوتة، فإن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية، فالمقهى أو المنزل، أو الأشياء كلها فإنها جميعا تشكل فضاء

الرواية. إن الفضاء وفق هذا التحديد شمولي، إنه يشير إلى المسرح الروائي بكامله ولمكان يمكن أن يكون فقط متعلقا بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي"[23].

ومما يجسده هذا المصطلح في الرواية أن الشخصيات وأفعالها تمثل عنصرا فنيا تشكيليا في بناء كيان الرواية فهو"**يعد من أحد جماليات الفن الروائي، فمن خلال تتبع مسار الشخصيات في تنقلاتها من مكان إلى آخر، نرصد علاقة الأمكنة ببعضها البعض، وعلاقتها ببقية عناصر الرواية**"[24]، كما أن "**هناك مسألة أساسية ينبغي إضافتها، وهي الحديث عن مكان محدد في الرواية يفترض دائما توقفا زمنيا لسيرورة الحدث، لهذا يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني، في حين أن الفضاء يفترض دائما تصور الحركة داخله، أي يفترض الاستمرارية الزمنية**"[25]، من أجل فك هذا التنازع والمعضلة الاصطلاحية بين " المكان والفضاء والحيز "، ارتأيت مصطلح الفضاء على أنه الأوسع والأعم والشامل لكل من الباقين كونه من حيث المفهوم قائم وعام ومن ناحية العلاقة القائمة بينه وبين الأدب متعلقة بنمطين "نمط مضموني ونمط تكويني قائم على تكوين النص الأدبي"[26]، ثم من ناحية أخرى أنه مرتبط بسيرورة الأحداث وجريانها، أما مصطلح المكان فيلتقي والانقطاع الزمني على حد تعبير لحمداني، فالفضاء هو مجموع الأمكنة الموجودة في سيرورة الأحداث فهو شمولي على المكان الذي تعلق بمسرح الحدث ولا يتعداه، بل جزء من الزمن. "**إن الفضاء من وجهة نظر فلسفية، سابق للأمكنة، إن له أسبقية تجعله موجودا من قبل هناك حيث ينبغي أن يستقبلها، هذا الفضاء إذن، وبعد ذلك تأتي الأمكنة لتجد لها حيزا في الفضاء**"[27]، ف"**الأمكنة جزر في الفضاء جواهر أكون صغرى منفصلة**"[28].

ب- **أنواع الفضاءات:**

يحدد جيرار جينيت أربع فضاءات قائمة في صلب التكوين الأدبي:

فضاء اللغة/ – فضاء الكتابة/– فضاء التعبير/– فضاء الأدب.

إلى جانب العلاقة المضمونية التي ترسم الإطار الذي تتحرك فيه الشخصيات، سواء أكان إطارا طبيعيا (الغابات، الصحراء)، أو مصنوعا (منتزه، مدينة، بيت، منجم)، وسواء أكان جامدا أو متحركا[29].

كما قسمه حميد لحميداني إلى أربعة أنواع:

الفضاء الجغرافي/- الفضاء النصي/- الفضاء الدلالي/-الفضاء كمنظور.

اتسمت هذه المصطلحات بالوفرة المعجمية التي لعبت الترجمة دورا في تكثيرها بين رؤى وأفكار مترجميها كلفظ espace مثلا تعددت ترجماته إلى أكثر من فضاء وحيز ومكان...فمنها ما اتسم بالغموض والسطحية أو تضارب بين مفرداته وعناصر بنائه مما يودي بالمتعلم إلى التشتت في فوضاه وضوضاء الانتقاد، إن لم نقل قد نحتاج إلى سرعة قمرية لإنتاج آليات فنية لدراسة العمل الأدبي.

إن العناصر المكونة للعمل السردي أربع عناصر وهي: الشخصية /- الحدث/- الزمان /- المكان.

ولكل أقسام وتعريفات وعلاقات، حسب ثقافة الكاتب وميولاته وحتى الواقع المحيط به والموجد في معيشته، يستبق يستذكر يسترجع ليقف عند بناء النص السردي، ليقدمه إلى القارئ من أجل إشراكه في إنتاج المعنى الذي أشار إليه عبر رموز سميائية، تحتاج إلى دلالات حرفية يخطها العقل وتبصرها النظرة لتتحدث أنامل اليد بالكتابة واللسان بالبوح عنها. تختلف هذه الدلالات حسب قراءات مختلفة يلعب الفضاء الميتافيزيقي الذي رسمه الكاتب أو الراوي دورا في تأويل الفراغ الذي تركه عمدا حتى يكون النص مفتوحا لإنتاج غير محدود من الدلالات.

إن عملية السرد لها جذور تاريخية، وُضعت للتاريخ وكتبت للحفظ والرواية، رسمت معالمها وشقت طريقها، وإن كان مصطلح السرد مصطلح جديد حديث إلا أنه في حقيقة الأمر وجوده تليد قديم، وما قصص الغابر وأخبار العصر والمصر عنا ببعيد .

الهوامش:

1- سيزا قاسم، بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مهرجان القراءة للجميع، د.ط، القاهرة، 2004م، ص103.
2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، د.ط، 2003م، حرف النون/فصل الميم/ج13/ص414/ مادة مكن.
3- حسن مجيد العبيدي، نظرية المكان في الفلسفة الإسلامية، دار نينوى لدراسات والنشر والتوزيع، سوريا دمشق، 2007، ص18، نقلا عن عبد الرحمن بن زورة، شعرية الفضاء في النقد الروائي المغاربي المعاصر (المفهوم والتحولات)، مركز الكتاب الأكاديمي، ط1، د.ب، 2018، ص15.
4- المرجع السابق، 19.
5- م ن ، ص ن.
6- https://ar.wikipedia.org/wiki
7- أحمد طاهر حسنين وآخرون، جمالية المكان، عيون المقالات، ط2، الدار البيضاء، 1988م، ص69.
8- البنية السردية حميد الحميداني، ص65.
9- غاستون باشلار، جمالية المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت لبنان، 1404هـ 1984م، ص6.
10- م ن، ص ن، فرق بين المكانية والمكان، فالمكانية هي تلك الصورة الفنية أما المكان فهو ما أشار إليه سابقا في التعريف.
11- محمد صابر عبيد، التشكيل النصي (الشعري، السردي، السير الذاتي)، مؤسسة اليمامة الصحيفة بالرياض، ط1، السعودية، 2003م، ص 373.
12- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج4/ ص 508/ مادة فضى.
13- ابن منظور، لسان العرب، مادة فضا/ج15/ص157.
14- إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 2013م، ص23.
15- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص26.
16- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص64.
17- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، باب الزاي فصل الحاء مادة حوز/ج15/ص120.
18- ابن منظور، لسان العرب، فصل الحاء باب الزاي مادة حوز/ ج5/ ص341.
19- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص122.
20- المرجع نفسه، ص121.
21- الجرجاني، التعريفات، ص83.
22- أحمد رحيم كريم الخفاجي، المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث، ص371.
23- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص63
24- عبد الحميد بورايو، منطق السرد – دراسات في القصة الجزائرية الحديثة ، –ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 1994م، ص54.
25- حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص63.
26- لطفي زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص127.
27- حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء المغرب، 2000م، ص44.
28- نقلا عن: المرجع السابق:

Georges Poulet, L'espace proustien, ed Gallimard, Paris, 1963, p51

29- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص127.